تعدد الدال والمدلول في سورة مريم

م.د. حميد قاسم هجر
م. د. أحمد طه ياسين

المقدمة :

من المعلوم إن الكلمات والألفاظ تحظيان بأهمية خاصة في دراسة النصوص لأنهما الأساس ، أو الوحدات الاساسية التي يتشكل منهما النص ، وإن دراسة دلالاتهما وخصائص استعمالهما تقودنا إلى تصور واضح عن البنية الكلية (أي الوحدة الكبرى) – النص – ومن هنا تظهر أهمية الألفاظ ودراستها ، إذ لايمكن معرفة النص إلا بدراسة وحداته الصغرى (الألفاظ) " وليس ثمة ما يثير الدهشة آو الغرابة في هذه المكان التي تنفرد بها الكلمات فهي أصغر نواقل المعنى أو أصغر الوحدات ذات المعنى في الكلام المتصل " [١].

وعليه فان الألفاظ القرآنية تحظى بمكانة متفردة وخاصة في الدراسة الدلالية لأنها اكتسبت هذه الخاصية من كون قدسية القران وكونه كتاب تشريع وتقنين وعليه اذا حدث خلل في هذه الدراسة وتغير دلالاتها ومعانيها حدث هناك تغير في التشريع والقصد الالهي ثم ان هذه الالفاظ والكلمات قد وضعت بشكل متناه في ألدقة وهي منسجمة تمام الانسجام مع السياق الذي ترد فيه بحيث لو استبدلت كلمة بكلمة اخرى لاختل المعنى وفقد التعبير حقيقته .

وان البحث الدلالي لم يكن مقتصرا على دراسة المفردة دون سياقها ، إذ لايمكن معرفة المعنى بشكله الدقيق من خلال مفردة دون أخواتها في السياق ، فالمفردة تستمد قيمتها ومعناها من خلال السياق الذي توجد فيه " وهل تجد أحدا يقول هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم ، وحسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها " [٢].

ويقدم السياق العون لنا في تحديد المعاني والدلالة المقصودة فهو يكشف معاني الألفاظ المتضادة والمترادفة وكذلك يعطي معاني حروف الجر وحروف العطف وغيرها [٣].

لابـل إن الكلمـة والكلمـات المجـاورة لهـا والعبـارة والعبارات المجاورة وصولاً إلى البنية الكاملة للنص تستمد مفاهيمهـا ودلالاتهـا مـن خـلال السـياق اللغوي[٤] .

وإذا أردنا أن نبحث دلاليا في سورة مريم من خلال العلاقات الترابطية القائمة بين كلمات ألسوره في موقعها السياقي ، نجد ذلك متمثلا في الأشكال الاتيـه (التـرادف ، المشـترك اللفظـي ، التضـاد والمقابله):

١ . الترادف :

هنـاك تعـاريف عديـدة للتـرادف وردت فـي بطـون الكتب قديمها وحديثها ولعل اقرب التعريفات وأسهلها هو : التعبير عن المعنى الواحد بأكثر من لفظ أو مـاختلف لفظـه واتفق معنـاه ، وقد اختلف العلمـاء قديما وحديثا ، فـي ترادف ألفـاظ اللغـة بـين منكـر لوجـوده ومؤيـد ، فـالمنكرون يقولـون بوجـود فـروق وبعض المعاني الجزئية الدقيقة ما بين الكلمات التي يضن أنها مترادفة فالألفاظ وان تقاربت معانيها غير إن لكـل لفظً هويـة معنويـة خاصـة ب إذ " يمكـن القول مع كل هذا أن ليست هناك مرادفات حقيقية ، وان ليس هناك لكلمتين نفس المعنى تماماً " [٥]

وقد يستدلون على كون " اختلاف العبارات والأسماء يوجب اختلاف المعـاني آن الاسم كلمـة تدل علـى معنـى ، دلالـة الإشـارة ، وإذا أشير إلـى الشـيء مرة واحـدة فعـرف ، فالإشـارة اليـه ثانيـةً وثالثـةً غيـر مفيدة"[٦].

ويفرقـون بـين الأسـماء وصـفاتها "كالسـيف والصـارم ، فانهمـا دلا علـى شـيء واحـد لكـن باعتبـارين ، احـدهما علـى ا لـذات والأخـر علـى الصفة"[٧].

فـا الصـارم صـفة للسيف ولـيس مرادفـا لـه وان دلا على شيء واحد.

أما القائلون بوجود الترادف فيحتجون لـه من الواقـع اللغوي ، وبجمـع كبيـر من المترادفات التـي جمعهـا رواة اللغـــة ،دون البحــث فــي الفــروق الدقيقــة بينها،فضــلا عــن كــونهم "تجـاهلوا تطـور الدلالــة فيها،وخلطوا بين لفظ عرفت له دلا لة جاهلية قديمة ،واخر اشتهر بدلاله اسلامية حديثة " [٨]

إذ يمكـن أن يكـون مـا اعتبـر مترادفـا كـان فـي زمـن سـابق غير مترادف وبتطبيق هذه الاعتبـارات علـى مفهـوم التـرادف، نجـد ان التـرادف التـام بـين ألفـاظ اللغة ، نادر جدا ، إذ آن" معظم الترادفات ليست الا أنصـــاف او اشــباه مترادفـــات ، وانـــه لا يمكـــن استعمالها فـي السياق الواحد ، أو الأسلوب الواحد دون تميز بينها [٩]

ويبدو للبحث ان الترادف وفق هذا المفهوم ومـا يراه (اولمـان) فـي تعريفـه للمترادفـات مـن " أنهـا ألفـاظ

متحدة المعنى وقابلة للتبادل فيما بينها في اي سياق "[١٠]

اي انه يرى لايمكن الحكم على ترادف أي لفظ إلا إذا استطعنا أجراء تبادل في ما بينها في مختلف السياقات بحيث يؤدي كل منها المعنى نفسه دون تغير وهذا لايمكن حصوله في القرآن الكريم لأنه كما ذكر سابقا إن الكلمة ألقرانيه تمتاز " عن سائر مترادفاتها بتطابق أتم مع المعنى المراد ، فمهما استبدلت بها غيرها لم يسد مسدها ولم يغن غناءها ، ولم يؤد الصورة التي تؤديها"[١١]

وعليه يمكن لناالقول انه "لامرادف في القران ، ولا يوجد لفظان يؤديان معنى واحد ، من حيث الاحكام والدقة ، ولايوجد اسلوب يؤديه الاسلوب الاخر[١٢]

وربما يبدو لمن اراد ان يقرأ القران على عجاله ودون تمحيص و تدقيق يمكن له القول بوجود بعض حالات الترادف ولكن عندما يسبر اغوار هذه الكلمات ويبحث بدقه في خصائص وامتيازات هذه المفردات يجد ان لاترادف بينهما

وهذا ما وجده البحث في بعض المفردات التي وردت في سورة مريم توحي للوهلة الاولى بوجود الترادف ولكن بعد البحث والتدقيق نجد ان هناك بعض الفوارق والمعاني المتغايرة لكل مفرده عن الاخرى .

مثل :-

ما جاء في قوله تعالى (يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعله له من قبل سميا قال رب انى يكون لي غلم وكانت امراتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا) (مريم ٧-٨) والآية(انما انا رسول ربك لاهب لك غلما زكيا قالت انى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم اك بغيا)(مريم ١٩ – ٢٠) فورود كلمة غلام في هذه الايات الكريمة ربما يتبادر للذهن هي مرادفه لمفردة (ولد) التي وردت في الاية ما كان الله ان يتخذ من ولد سبحانه اذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون (مريم٣٥)

والحقيقة أن هذه الكلمات جاءت كل واحده فيها في موضعها المناسب بحيث لا يمكن الاستبدال بينهما في السياق لحصول تغير في المعنى مما يبعد حالة الترادف بينهما. فالغلام هو " الطار الشارب " يقال غلام بين الغلومة والغلومية[١٣]

فهو يطلق على من اوشك على الادراك والبلوغ فـ (الغين ولام والميم اصلٌ صحيح يدل على حداثه وهيج الشهوة من ذلك الغلام ، هو الطار الشارب ، وهو بين الغلومية والغلومة والجمع غلمة وغلمان)[١٤]

اما كلمة (ولد) التي وردت في الاية السابقة فتعني " الولد المولود وقد قال ابو الحسن : الولد الابن والابنة ، والولد هم الاهل والولد"[١٥]

ويبدو ان وضع كلمة (الغلام) في الآيات (٧-٨) (١٩-٢٠) وإيثارها على كلمة (ولد) جاء لما تحمله كلمة (غلام) من معنى أعمق في ما يناسب هذه الحالة وهي حالة التبشير والبشرى وحالة زرع الأمان والاطمئنان لدى المبشر فهي قد حملت معنيين :

أولهما بشرى زكريا (عليه السلام) برزقه للولد وكذلك الامر بالنسبة لمريم(عليها السلام) .

وثانيهما إن هذا الولد الذي سيرزق به زكريا وكذلك الذي ترزق به مريم سيعيشان ويكبران حتى يصيرا غلامين طاري الشاربين.

فهنا جاءت لفظ (غلام) مجاز مرسل أي نبشرك بمولود سيولد ويكبر بعد ذلك ويصبح غلاما أي مدعاة للاطمئنان في حين المستفاد من لفظة (ولد) هو الاقتصار على إعطاء كل واحد منهما ولد دون الإخبار عنه عما اذا كان سيكبر ويصبح غلاما أم لا فإذن وجود غلام في هذه المقام هوا المناسب لحالة البشرى التي أراد الله أن يعطيها لزكريا ومريم عليهما السلام.

إما مجيء كلمة (ولد) في سياق الآية (٣٥) فهي لغرض نفي نسبة الولد للذات الالهية جل شانها من الأساس ، وما دام ليس لهُ تعالى من ولد على الإطلاق ، فلا يجوز القول : ما كان لله من غلام ، لأنه ليس له ولد حتى يكون له غلام فقد تم قطع الطريق من الأساس بأنه تعالى لم يكن له ولد .

ومن الترادف الظاهر في هذه السورة كلمتا (يبعث حيا واخرج حيا)

في قوه تعالى (وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويمم يبعث حيا)(مريم / ١٥)

و (يقول الإنسان أإذا ما مت لسوف اخرج حيا) مريم ٦٦

فالرائي للوهلة الأولى يعتقد ان هاتين المفردتين مترادفتان ولكن عند البحث والتدقيق يرى غير ذلك فـ " أصل البعث اثارة الشيء وتوجيه ، يقال بعثته فانبعث"[١٦]

وإما الخروج فهو من خرج خروجا اي : برز من مقره او حاله سواء كان مقره دار أو بلد أو ثوبا [١٧]

يستفاد من الآية أن معنى الخروج البروز من المقابر ، وهو مرحلة ربما تكون من أصعب المراحل في الحياة الأخرى وأكثرها رعبا وخوفا في ذهن غير المؤمن ، لذلك اختار الحديث عنها لما يرى أو يعتقد صعوبة تحققها وعدم إمكانها ، ففي هذه الآية تعني إن الله يحيي العظام وهي رميم ، وهذا ما لا يستطيع تصوره وإمكانية تحققه.

في حين إن البعث هو النشور يوم القيامة ، وهو عملية اكبر وأوسع واشمل ، وليس الخروج إلى جزء

من هذا العملية وتحديدا هو احد مراحل هذه العملية الكبيرة وهي عملية البعث التي تبدأ بالخروج وتنتهي بظهور النتيجة المتمثلة بالجنة أو النار.

من هنا نرى إن العلاقة بين البعث والخروج ليست علاقة ترادف وإنما هي علاقة تضمينية اي علاقة الجزء بالكل فالخروج هو جزء متضمن في عملية البعث الكبيرة وعملية البعث هي محتوية لهذا الخروج.

ومن كلمات هذه السورة التي توحي بالترادف كلمتا (البشر و انسيا) فالبشر والإنسان مفردتان مترادفتان ولكن هنا يكون الأمر على غير هذا المنوال ففي قولة تعالى (فاما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن اكلم اليوم انسيا) (مريم – ٢٦).

فالإنسي : منسوبا للإنسان كقولك : جني وجن وسندي وسند وجمع إنا سي ككرسي وكراسي[١٨]

وهي تقابل في معناها كلمة التوحش فـ " ألهمزة والنون والسين اصل واحد ، وهو ظهور الشيء ، وكل شيء خالف طرية التوحش "[١٩]

وجاءت هنا (إنسا) في سياق الحديث عن الكلام والتخاطب بين الناس الذي يزيل الوحشة بين الإفراد (فلن اكلم اليوم انسيا) يراد منها كذلك معنى اخر هو الاقتصار على مناجاة الرب تعالى والاعتكاف عن الناس إما كلمة (البشر) فتاتي للدلالة على الجانب الخلقي للإنسان وشكله كما في الآية السابقة (فإما ترين من البشر أحدا) أي ترين ممن هذا الجنس أو الصنف أو هذا الخلق أو من هذا الشكل آو الهيأة فقولنا البشر : يقتضي حسن الهيئة ،وذلك انه مشتق من البشارة وهي حسن الهيئة فسمي الإنسان بشرا لأنه أحسن الحيوان هيئه[٢٠]

وتأتي كذلك للدلالة على طبيعة الإنسان البشرية القاصرة [٢١]

فورود كلمة (بشر) في قوله (ولم يمسسني بشر) جاءت هنا بشر في معرض الكناية عن عملية الجماع والتي هي من أفعال الجسد وقد ذكر ذلك الأصفهاني في معجمه فقال " وخص في القران كل موضع اعتبر من الإنسان جثته وظاهره بلفظ البشر "[٢٢]

وهنا يبدو الفرق بين الكلمتين : (انسيا) تدل على كل ما هو من الإنسان أي من الإنس مقابل الوحشة ويجعل بعضهم يأنس ببعض من خلال الكلام والسلوك ونحوهما فالدلالة جاءت هنا للنسبة : أي منسوبه للإنسان المشتق من الإنس ، أما البشر فتدل على الجانب الشكلي والخلقي والتصميمي والهيئي للإنسان .

ومن قبيل الترادف كلمتي أحصاهم وعدهم التي وردت في قوله تعالى (لقد أحصاهم وعدهم عدا) (مريم – ٩٤) التي تبدوان وكأنهما مترادفتان وليس

هما كذلك فالإحصاء للتحصيل بالعدد قال تعالى (وأحصى كل شيء عددا (الجن – ٢٨) اي حصله وأحاط به [٢٣]

فتكون (أحصاهم) داله على معنى الاحاطة بالاضافة إلى معنى العد . وأما العد فلا يتضمن معنى الاحاطة وإنما يعني " ضم الأعداد بعضها إلى بعض "[٢٤]

فدلت (أحصاهم) على معنى الاحاطة بهم وتحصيلهم ثم جاءت بعد ذلك (أعدهم) كمرحلة تاليه أكثر تفصيلا ، حيث تجري فيها عملية عد هؤلاء بطريقه يفهم منها انه سبحانه لايؤته شيء من أحوالهم ، ولا يخفى عليه واحد منهم فـ " كلهم تحت امره وتدبيره وقهره وقدرته ، فهو سبحانه محيط بهم ويعلم مجمل أمورهم وتفاصيلها ، أي لا يفوته شيء من أحوالهم [٢٥]

أما ما ورد في قوله تعالى (فاتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئتي شيئا فريا) (مريم – ٢٧) هنا نرى (أتت وجئت) ما دلالتهما ، فقد ذكر إن الإتيان تحيط به ثلة من معاني الغموض والشك والجهل وعدم القصد ، في حين المجيء تحيط به معاني العلم واليقين وتحقق الوقوع والقصد[٢٦]

ومن هنا نرى إن مريم عندما أرادت أن تأتي إلى قومها كان إتيانها محفوف بكثير من الجهل بالمستقبل وعدم معرفة ردة الفعل من قبل قومها وهي تحمل وليدها الجديد (فاتت) حملت في طياتها كثيرا من التوقعات والشكوك وعدم معرفة المصير أما قولهم (جئت) فهو قول يدل على الثقة والاطمئنان والدال على قصد واضح لا لبس ولا غموض فيه وهو يشعر بثقة القوم باتهامهم بمريم عليها السلام

٢ . المشترك اللفظي

تمثل ظاهرة الاشتراك في الألفاظ من الظواهر المهمة في دراسة المعنى عند اللغويين ، فاللفظ المشترك عندهم هو " اللفظ الواحد الدال على معنيين أو أكثر ، دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة[٢٧]

وفيه يكون للكلمة " نفسها مجموعه من المعاني المختلفة "[٢٨]

أو كما قال المبرد " اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين "[٢٩] وعزي سعة اللغة العربية لاشتمالها على قدر لايستهان به من الألفاظ التي تنوع استعمالها بتنوع السياق التي جاء التعبير بها عن طريق الاشتراك [٣٠]

ويرى إبراهيم أنيس إن"ماوقع في القران الكريم من ذلك المشترك اللفظي فقليل جدا، وجله ان لم يكن كله، مما تلحظ فيه الصلة المجازية كالعين للباصرة ولعيون الأرض "[٣١].

إلا أن الشيخ ابن عاشور يرى انه اللفظ المشترك قد استعمل في القران في معناه الحقيقي والمجازي معا[٣٢]

وقد وردت مفردات عديدة في سورة مريم تصب في هذا الاتجاه منها كلمة (إيه) التي وردت مفردة ومجموعة في السورة عدة مرات بمعان متباينة فجاءت في الآية (قال ربي اجعلي أيه قال آيتك ألا تكلم الناس) (مريم – ١٠)

بمعنى علامة أو إشارة دالة على المعجزه الحاصلة من جراء حمل امرأته العقيم ،

وجاء (ايه) في القران الكريم بمعنى قريب " من المعنى المعجزة فيكون ماقدمه النبي من الخوارق إيه، أي علامة ظاهرة على نبوته " [٣٣]

مثل قوله تعالى بخصوص النبي عيسى (ع) (ولنجعله أية للناس ورحمة منا وكان امرأ مقضيا) (مريم – ٢١) أي دلاله على القدرة العظيمة للذات الالهية " وانه تعالى يخلق ما يشاء كيف يشاء : إن شاء خلقة من أنثى من دون ذكر "[٣٤]

وجاءت كلمة (أيه) بمعنى كلام الله أو آياته كما في قولة تعالى (إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا) (مريم – ٥٨) أي " إذا سمعوا آيات ربهم تتلى تأثروا تأثرا عظيما ، يحصل منه لبعضهم البكاء والسجود "[٣٥]

ومنه قوله تعالى (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين امنوا أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا) مريم – ٧٣

يعني إذا قرئت عليهم آيات القران أخضعوها للاستهزاء والمعارضة وجاءت

بالمعنى نفسه في قوله تعالى (أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا)مريم_٧٧ .

والملاحظ من خلال بعض الآيات القرانية في هذه السورة أن المشترك اللفظي جاء هنا ليس امرأ هامشياً أو حدثاً عابراً ،وإنما ينبني عليه كثير من النتائج كما ورد في الفعل (دعا) فقد وردت ألفاظه المختلفة بدلالات تؤكد أهمية الدعاء لكونه قد اختص به–الله وحده– دون غيره، فقد أورد صاحب معجم المقاييس "الدال والعين والحرف المعتل أصل واحد،وهو أن تميل الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك،تقول:دعوت ادعو دعا"[٣٦]. وهنا بمعنى النداء وجاء كذلك بمعنى الطلب والرجاء من الله تعالى كما في قوله تعالى (ولم أكن بدعائك رب شقيا)مريم/٤

وربما يأتي الدعاء على أوجه عديدة كما ورد " قال أبو إسحاق : معنى الدعاء لله على ثلاثة أوجه : فضرب منها توحيده والثناء عليه .. والثاني مسالة الله العفو والرحمة وما يقرب منها كقولك : اللهم اغفر لنا ، والضرب الثالث : مسالة الحظ من الدنيا

كقولك : اللهم ارزقني مالا وولدا ، وإنما سمي هذا جميعه دعاء ، لان الإنسان يصدر في هذا الأشياء بقوله : يا لله يا رب يارحمن " [٣٧]

وجاءت (دعوا) بمعنى نسبوا ، كما جاء في قولة تعالى (ا ندعو للرحمن ولدا) مريم – ٩١

وورد كذلك الفعل (تدعون) بمعنى تعبدون في قولة تعالى (واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا) مريم – ٤٨

هنا أدعو ربي أي اعبده وحده ، وعبر عن العبادة بالدعاء لأنه احد تجليتها و"لأنه منها ومن وسائطها، ومنه قوله (ص) (الدعاء هو العبادة)"[٣٨]

هذا ما ورد بالنسبة لمفردة (دعا).

ونجد في هذه السورة وبخصوص هذا المقام أن بعض الأفعال يأتي في سياقين مختلفين وفي كل سياق يأتي بفكرة عميقة ومهمة . فالفعل (خر) جاء مرتين مرة مع المؤمنين بمعنى سجد كما في قوله تعالى (خروا سجدا وبكيا) مريم – ٥٨

فالمؤمنون " عند تلاوة آيات الله يخرون سجدا وبكيا، خضوعا وخشوعا ، وحذرا وخوفا "[٣٩]

وجاء ثانية مع الجبال ، بمعنى سقط وانهد كما في قولة تعالى (وتخر الجبال هدا) مريم – ٩٠

فنراها " تتساقط اشد ما يكون تساقط البعض على البعض ... ، تهويلا من فضاعتها ، وتصويرا لأثرها في الدين ، وهدمها لأركانه وقواعده" [٤٠]

وهنا يمكن لنا أن نقارن بين المؤمنين الذين يخرون لله سجدا خاشعين له تائبين خاضعين لأوامره ، وبين الجبال التي تنهد من الأعالي حين سماعها افتراء الكافرين بدعوتهم أن لله سبحانه ولد ، ويبدو من خلال الآيتين الكريمتين أن هناك توافقا واضحاً وجلياً من أن خلق الله بأسره يخضع لربوبيته وينضبط بنواميسه ، ويسبحه ويقدسه (وان من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحه) الإسراء – ٤٤

ما خلا الكافرين فإنهم خرجوا عن طريق الله السوي وعن فطرتهم التي فطرهم الله عليها وأصبحوا شاذين بعيدين . ثم أن توافق الفعل (خر) ما بين المؤمنين والجبال ، جعل من المؤمنين في الصلابة والعلو والسمو كصلابة الجبال وعلوها وسموها ، وحالة السجود الحاصلة لهم تكون كثقل الجبال عندما تنهد وتخر . فسبحان الله . ومن الكلمات المشتركة لفظيا في هذه السورة كلمة (لسان) فوردت في هذه السورة بموضعين في قوله تعالى (فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا) مريم – ٩٧

وقوله جل شانه(ووهبنا له من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا) مريم – ٥٠

فجاءت في الآية الأولى تعني (لغة) من اللسان والألسن وفي الثانية وردت بمعنى الثناء والذكر الحسن [٤١]

وفـي توظيـف الكلمـة نفسـها للتعبيـر عـن هـذين المعنيين في السورة مدعاة للربط بينهما ، وللكشف عن الدلالة الاضافية التي يؤتيها احدهما للآخر ، وتتمثل هذه الدلالة في التأكيد على انه وكما تجلت قدرة الله في تخليد ذكر هؤلاء الأنبياء على مر العصور وكر الدهور ، إذ ظلوا يحظون بالتقدير والاحترام " لان جميع أهل المال والأديان يثنون عليهم لمالهم من الخصال المرضية ، ويصلون على إبراهيم وعلى اله إلى قيام الساعة "[٤٢]

فكذلك ستجلى قدرته سبحانه بتخليد ذكر القران ، الذي سيظل في المكان العلي من الحفظ والصون .

ومن مفردات المشترك اللفظي في هذه السورة ورود الفعل (جعل) الذي جاء في تسع مواقع من السورة وجاء بصيغ مختلفة لم تتشابه في ما بينها (جعل ، يجعل ، سيجعل ، اجعل ، اجعله ، وجعلني ، يجعلني ، نجعل ، ولنجعله ، جعلنا) .

وجعل تعني : خلق [٤٣]،وتأتي كذلك عمل وهيأ ومنها جعله : صنعه وصيره[٤٤].

وجاء كذلك من ضمن معانيه تغيير صورة الشيء بإيجاد الأثر فيه ومعنى الأحداث ومعنى الخبر ومعنى الحكم [٤٥].

وجاء (الجعل) في هذه السورة بمعان متعددة ففي قوله تعالى (قال رب اجعل لي أية) مريم – ١٠ جاء هنا بمعنى هيأ ،أي هيئ لي علامة تدلني على تحقق المسؤول ، ووقوع الجعل [٤٦]

في حين نراه قد ورد بمعنى تصبير الشيء في الآيات (واجعله رب رضيا)

مريم – ٦ ، (وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيا) مريم – ٣٢ ، (قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا ، وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا) مريم – ٣١/٣٠ ، (ووهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا) مريم – ٤٩ .

وقد جاء بمعنى يخلق كما في قولة تعالى (إن الذين امنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا)مريم – ٩٦

وجاء بمعنى أوجد في قولة تعالى (لم نجعل له من قبل سميا) مريم – ٧

وبهذا نرى أن مفردة (جعل) قد استوعبت جميع معانيها في هذه السورة (هيأ ، صير ، اوجد ، وخلق) وأنها جاءت في جميع معانيها تثبت إكرام الله للمؤمنين ومنه عليهم بإعطائهم النبوة والرضا

٣ . التضاد والمقابلة :

التضاد : هو نوع خاص من المشترك اللفظي وقد أطلق عليه مصطلح الأضداد أو التضاد ويعني إطلاق اللفظ الواحد على المعنى وضده أو إن

الكلمتين التي يدل عليهما لفظ مشترك تتضادان في المعنى [٤٧]

وقد قال ابن فارس " ومن سنن العرب في الأسماء أن يسموا المتضادين باسم واحد ، نحو (الجون) للأسود و (الجون) للأبيض " [٤٨]

ويأتي التضاد في نوع أخر وهو موضوع بحثنا فهو نوعا من أنواع البديع ويسمى (المطابقة)وهو إن يذكر الشيء وضده ، كالليل والنهار ،كالسواد والبياض [٤٩]

وللتضاد أسماء أخرى " ويقال له الطباق ، التكافؤ ، ألمقابلة وحاصله الإتيان بالنقيضين والضدين " [٥٠]

وربما يساهم هذا المفهوم في تأكيد المعنى ، وفي إظهاره في صورة اقوى كما ورد في قولة تعالى (وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا) مريم – ١٥

وقوله تعالى (والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم ابعث حيا) مريم – ٣٣

فهنا التضاد في الآيتين بين (ولد) وبين (يموت) وكذلك بين (ولدت) و (أموت) قد حقق تأكيد ملازمة السلام لزكريا وعيسى (عليهم السلام) في المواقف المتناقضة والمختلفة ، وهي من أصعب المواقف التي يمر بها الإنسان من الميلاد إلى الموت إلى البعث ، ثم أن التضاد هنا قد نبه لحقيقية محاولا تثبيتها وتأكيدها وهي تقرير العبودية لله وحده دون غيره ونفي صفة الالوهية خاصة عن عيسى (ع) لان من يمر بهذه الأطوار وهي أطوار الحدوث والنشاءة ثم الموت والبعث لم يحق له أن يكون الها [٥١]

ثم أن التضاد هنا (في هذه السورة جاء بفائدة أخرى حينما يوضع النقيضين في صف واحد فهو يفيد الترغيب في احدهما والتنفير من الثاني كما جاء في قوله تعالى (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين امنوا أي الفريقين خير مقاما واحسم نديا) مريم – ٧٣

فهنا نرى استحضار (المتضادين) (الذين كفروا) و (الذين امنوا) وحصول حالة المقارنة بين المؤمنين وبين الكافرين من حيث العاقبة أو المصير أو من حيث الهداية والضلال ولم تقتصر حالة التضاد على هذه الفائدة في هذه الآية بل بعموم السورة المباركة كما ورد في كلمات (الهداية – الضلال) (اهتدوا ، هدى ، أهدك ، هدينا) وبالمقابل (ضلال، الضلالة) والظاهر ان هذا التضاد من خلال هذه المقارنة يهدف إلى تزيين طريق الإيمان وفضح طريق الكفر ، بما يحمله وصف الهداية من ترغيب بالإيمان وانتهاج الطريق القويم ، وبما يحمله وصف الضلالة من التنفير من الكفر لوصفه انحرافا وتنكبا عن طريق الحق.

ومنه وضمن امتدادات التضاد والمقابلة في عرض هذه السورة يقف الإنسان عند مقارنة بين حالتين متقاطعتين للسيدة مريم (عليها السلام) ففي الصورة الأولى نلحظ قوله تعالى (فحملته فانتبذت به مكانا قصيا) مريم – ٢٢

حيث صورت هذه الآية الحالة التي كانت عليها مريم عند الحمل وعن حالة الحرج العظيم التي كانت تشعر به إذ خشيت من أن تتهم في عرضها ، ولذلك فهي " إنما اتخذت المكان البعيد حياءً من قومها ، وهي من سلائل بيت ألنبوه ، ولأنها استشعرت منهم اتهامها بالريبة ، فرات أن لا تراهم وان لا يروها " [٥٢]

في حين ترسم الصورة الثانية الحالة التي وصلت لها مريم (عليها السلام) حينما شاهدت كرامات ربها وإفاضاته جل شأنه عادت تواجه قومها برباطة جأش وهي تحمل وليدها (فاتت به قومها تحمله)مريم – ٢٧

فهذه المقابلة قد أبرزت تحول نفسياً عند مريم ما بين الإحجام والحرج والتردد الذي أبرزته الآية (فانتبذت به مكان قصيا) وبين الإقدام والثقة والاقتراب في (فاتت به قومها تحمله) ثم نلاحظ أن المقابلة ربما جاءت في هذه السورة لحالة وعظيه غايتها نقض تصورات الكافرين وإظهارهم لخسارتهم من خلال ادعائهم لأرباب أخر كما جاء في الآيات الآتية (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ..... ونسوق المجرمين) مريم – ٨٥ / ٨٦

وقولة تعالى (الم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين .....) مريم – ٨٣

و (لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا)مريم – ٩٧

و (لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين)مريم – ٣٨

(ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا)مريم– ٧٢

نلاحظ هنا حالة المقابلة والدور الذي قامت به من خلال إظهار كلتا الحالتين المتضادتين ومقدار الفرق الشاسع ما بين حالة الإيمان وحالة الكفر من خلال اقتران الإيمان بالصفات الحميدة واقتران الكفر بالصفات الرذيلة.

ومن هذا القبيل ما جاء في هاتين الآيتين (واتخذو من دون الله الهةً ليكونوا لهم عزا) مريم – ٨١ ، (كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا) مريم – ٨٢

نلاحظ أن ألمقابلة قد برزت بين الكلمات (ليكونوا ، ويكونون) و (لهم ، عليهم) و (عزا ، ضدا)

وتؤكد هذه الآيات خسارة الطرف الكافر الذي يحمل في داخله عوامل اضمحلاله ، إذ إن هؤلاء الذين حسبوهم عزا لهم سيخذلونهم ويكونون عليهم ضدا ، ف "عليهم في مقابلة (لهم غزا) المراد ضد العز وهو الذل والهوان إي يكونون عليهم ضد لما قصدوه

وأرادوه، كأنه قيل :و يكونون عليهم ذلاً ، لا لهم عزا"[٥٣]

ويبدو أن التقابل أو ألمقابلة ربما تفيد تحقيق التوازن بين حالتين شعورتين لا يحصل فيها الغلبة لطرف على طرف كما في قولة تعالى (فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا) فهو قد جمع ما بين (التبشير والإنذار) فكانت غاية مزدوجة جاء بها القران الكريم لتبشير المتقين ، وإنذار المعارضين فـ " مقابلة (المتقين) بـ (قوم لدا) لان التقوى امتثال وطاعة والشرك عصيان ولدد " [٥٤]

فالمتقين كانت لهم البشرى لامتثال أوامر الله وطاعته و (قوم لدا) لهم الإنذار بما عصوا وبما كانوا مشركين والتبشير و الإنذار يحقق حالة من التوازن بين حالتي الترغيب والترهيب.

وفي ختام هذه الجولة الدلالية في ميدان سورة مريم لابد لنا أن نسجل من أن القران الكريم بآسره كان دقيقاً في اختيار ألفاظه وكانت الفاظه متنوعة الدلالات وذات تأثير قوي في المتلقي ثم أن ما عرف بالترادف ووفق المعطيات أللغوية المذكورة لم يكن موجودا بين مفردات القران الكريم

وكان للمشترك اللفظي بعض المهام مثل إكساب الكلمة درجة عالية من الحجة والبرهان ، والإشارة إلى الانسجام الحاصل ما بين المؤمنين وبعض مفردات الكون في العبادة لله تعالى

بعد ذلك لاحظنا أن للمقابلة والتضاد في هذه السورة غايات وأهداف من خلال تأكيد المعنى واظهاره ، وفي إنشاء مقارنة بين النقيضين لغرض الوعظ والإرشاد والتبين وكذلك في نقض أوهام الكافرين وفي تحقيق التوازن بين الحالتين.

هوامش البحث

١- دور الكلمة في اللغة ، اولمان ستيفن ، ص١٩

٢. دلائل الإعجاز للجرجاني ، بيروت ، دار الكتب العلمية ١٩٨٨ ، ص٣

٣ . ينظر دراسات في اسرار الغة ، احمد حسن حامد ، مكتبة النجاح ١٩٨٤ ، ص٥

٤ . ينظر اللغة العربية معناها ومبنها ، تمام حسان ص١١

٥ . علم الدلاله ، ف ، بالمر ، ت مجيت عبد الحليم الماشطه ، كلية الآداب ، جامعة المستنصرية ١٩٨٥ ص١٠٤

٦ . الفروق اللغوية ، ابو هلال العسكري ص١١

٧ . المزهر في العلم للغهوانواعها ، جلال الدين البيوجي ١ ، ص٤٠٢

٨ . دلالة الالفاظ ، ابراهيم انيس ، ١٩٩٢ ص٢٩١

٩ . دور الكلمة في اللفه ، ستيفن اولمان ص١٢١

١٠ . نفسه ص١١٩

١١ . من روائع القران ، محمد سعيد اليوطي ص١٢٩

١٢ . المعجزة الكبرى القران ، الامام محمد ابو زهره ص٢١١

١٣ . معجم مفردات ألفاظ القران الكريم ، للراغب الأصفهاني ، مادة : غلم

١٤ . معجم مقاييس اللغة ، لبن فارس ، مادة : غلم

١٥ . معجم مفردات ألفاظ القران الكريم ، مادة : ولد

١٦ . معجم مفردات الفاظ القران الكريم ، مادة : بعث

١٧ . نفسه ، مادة : خرج

١٨ . لسان العرب ، ابن منظور ، مادة انس

١٩ . معجم مقاييس اللغة ، ابن فارس : مادة انس

٢٠ . ينظر الفروق اللغوية ، أبو هلال العسكري ، ص٢٢٨

٢١ . العجم الفهرس لألفاظ القران الكريم ، محي فؤاد عبد الباقي ، مادة : بشر

٢٢ . معجم مفردات ألفاظ القران الكريم ، مادة بشر

٢٣ . نفسه ، مادة حصى

٢٤ . نفسه ، مادة عده

٢٥ . التفسير الكبير ، فخر الدين الرازي ، ج٢١ ، ص٢٥٥

٢٦ . الترادف في القران الكريم بين النظريه والتطبيق ، محمد المنجد ، ص١٦٤

٢٧ . المزهر ج١ ص٣٦٩

٢٨ . علم الدلالة ، ف ، بالمر ، ص١١٦

٢٩ . ما اتفق لفظة واختلف معناه من القران المجيد ، المبرد ، ص٢

٣٠ . ينظر دراسات في فقة اللغه ، د.صبحي الصالح ، ص٣٠٨

٣١ . دلالة الالفاظ ، ابراهيم انيس ، ص٢١٥

٣٢ . ينظر التحرير والتنوير ، ١ / ٩٦

٣٣ . البيان في اعجاز القران ، صلاح عبد الفتاح الخالدي ص٢٥

٣٤ . اضواء البيان في ايضاء القران الكريم ، لشيخ محمد الامين الشنقيطي ، ص٨٢

٣٥ . اضواء البيان في ايضاح القران بالقران ، الشنقيطي ، ص٢٣١

٣٦ . معجم مقاييس اللغة : مادة دعوه

٣٧ . لسان العرب : مادة دعا

٣٨ . الكشاف ، الزمخشري ج٣ ، ص٢٠ – ٢١

٣٩ . التفسير الكبير ، فخر الدين الرازي ج٢١ ص٢٣٤

٤٠ . نفسه ، ص٢٥٤

٤١ . ينظر الكشاف ، زمخشري ، ج٣ ، ص٢١

٤٢ . صفوة التفاسير ، محمد علي الصابوني ، ج٢ ، ص٢٢٠

٤٣ . لسان العرب / مادة جعل

٤٤ . ينظر نفسه

٤٥ . الفروق اللغوية ، ابر هلال العسكري ، ص ١١٠

٤٦ . الكشاف ، الزمخشري ، ج٣ ، ص٢

٤٧ . الاتجاهات النقدية عن مفسري القران الكريم من المحدثين ، دكتور حميد قاسم هجر ، ص١٨٥

٤٨ . الصاحبي ، ابن فارس ص٦٠

٤٩ . اعجاز القران ، الباقلاني ، ص٨٠

٥٠ . الطراز ، العلوي ، ص٥٦٤

٥١ . ينظر التوحيد والتنزيه في سورة مريم ، عبد الحميد محمود ، ص٤٦

٥٢ . في رحاب التفسير ، عبد الحميد كشك ، القاهرة ، المكتب العصري الحديث ، ص٢٣٧١

٥٣ . الكشاف ج٣ ص٤٠

٥٤ . التحرير والتنوير ، ابن عاشور ج١٦ ص١٧٧